١٣ ـ بين القاهرة وطوس

من سلطان آباد إلى بغداد

للدكتور عبد الوهاب عزام

سلطان آباد حاضرة ولاية فى إيران تسمى العراق ، وهى فى الجنوب الغربى من سهل فراهان ، بناها منذ مائة وثلاثين سنة يوسف خان الكرجى وجعلها مربعة الشكل ، وسوّرها وحصنها . وولاية العراق هذه خصبة كثيرة الزرع ، فيها زهاء ٦٨٠ قرية ، وسجاجيدها مشهورة

وعلى مقربة من هذه المدينة كانت مدينة الكرج ، فى الأقليم الذى كان يعرف باسم كرج أبى دلف ، وقد ذكره الشعراء فى مدائحهم

دخلنا المدينة ليلا فسرنا قليلاً فانتهينا إلى ميدان فسيح فيه حديقة تمتد منه أربعة شوارع واسعة . وهذا نظام جديد اتخذ لاصلاح المدن الايرانية فى السنوات الأخيرة

وقف بنا السائق على فندق (مهما تمانه) فى هذا الميدان فدخلنا إلى فناء واسع للسيارات وصعدنا فى سلم إلى حجرات على مقربة منها منتدى (قهوة) فلم نرض هذه المجاورة ، فنزلنا إلى فندق آخر بجانبه ، ليس فى المدينة سواها . فاتخذنا حجرة لا بأس بها فى مثل هذه المدينة ، واسترحنا وطعمنا قليلاً ثم خرجنا نجول فى البلد فلم نر شيئاً أكثر مما أحاطت به النظرة الأولى ، ورأينا المدينة على صغرها وسذاجتها نظيفة جميلة

وبرحنا البلدة والساعة ثمان وأربعون دقيقة من صباح الثلاثاء رابع عشر رجب (٢٣ أكتوبر) مسرعين صوب همذان نود أن نبلغ بأية وسيلة بغداد يوم الأربعاء لندرك قافلة السيارات التى تبرحها إلى دمشق صباح الخميس . بلغنا نخر آباد والساعة تسع . وقد استلفتتنا كثرة العمران والزروع على الطريق كما قلت من قبل ، ووقفنا والساعة عشر على ضيعة اسمها زنكنه معروفة بجودة عسلها فأكلنا ونحن نقول إن لله دواء من العسل (مستعيذين من المثل القديم : إن لله جنوداً منها العسل) . ثم وقفنا على ملابير (دولت آباد) والساعة إحدى عشرة فطلبت جوازات السفر للاطلاع عليها . والمسافة بين سلطان آباد ودولت آباد ١٠٠ كيلو

وواصلنا السير تلقاء الغرب والشمال حتى بلغنا همذان والساعة واحدة بعد الظهر ، فسرنا فى شارعها الكبير وجددنا العهد بمرقد الفيلسوف ابن سينا ، ثم أوينا إلى فندق يقوم عليه جماعة من الأرمن ، والأرمن فى إيران قوّمة الفنادق ، تلقاهم فى كل مدينة وقرية ، وما نزلنا فندقاً أو مطعماً على طريقنا من طهران إلى حدود العراق إلا عرفنا صاحبه أرمنياً

وأعجلنا السفر عن الاقامة فى همذان يوماً ، فبرحناها بعد ساعتين سائرين شطر الجنوب للمبيت فى كرمانشاهان ، ونحن الآن على طريقنا التى سلكناها من قبل إلى طهران فلا أعيد وصفها هنا . لما شرعنا نفرع الجبال جنوبى همذان أصاب مصدم السيارة خلل ، فسقطت لوحة صغيرة كتب عليها جشن فردوسى « عيد الفردوسى » وقد علق مثلها على كل سيارة أعدت للسفر فى حفلات الفردوسى ، فوقفنا وبحث السائق فوجدها وفك المصدم فربطه خلف السيارة . وقد أدت هذه الحادثة الصغيرة إلى أن تأخرنا عن بلوغ بغداد يوم الأربعاء ففاتتنا قافلة الخميس ، كما يأتى .

واجتزنا جبال أسد آباد وبلغنا كنكاور والساعة خمس وربع من المساء ، وقد ذكرت هذه البلدة فى طريق إلى طهران . أزيد هنا أنا نزلنا فاسترحنا وشربنا الشاى وأكلنا البطيخ ، وهو فى إيران كثير لا يعدمه السائر حيثما سار ، وخرجنا نمشى على الطريق ننتظر أن يعد السائق سيارته فاذا جماعة جالسون فى عريش على جانب الجادة ، فتقدم كبيرهم فحيانا وقال إن فى البلد آثاراً قديمة . أتريدون أن تروها ؟ . وعرفنا حينئذ أنه حاكم البلد فسرنا لنرى الآثار وصحبنا الحاكم وجماعة من الموظفين فرأينا بلداً صغيراً فقيراً فى وسطه أحجار ضخام وقطع من أعمدة كبيرة اختلطت بالدور ، فقيل هذا أثر معبد قديم . واخترقنا بعض الدور وسرنا بضع دقائق فرأينا أحجاراً أخرى قيل لنا إنها من آثار المعبد نفسه . وكان معبداً للآلهة (أناهيتا) من آلهة الفرس القدماء بناه لها الاشكانيون ، وكان أيام الفتح العربى مأوى اللصوص وقطاع الطريق فمن أجل هذا سموه قصر اللصوص

قال ياقوت فى المعجم : « قال صاحب الفتوح لما فتحت نهاوند سار جيش من جيوش المسلمين إلى همذان فنزلوا كنكوَر فسرقت دواب من دواب المسلمين فسمى يومئذ قصر اللصوص وبقى اسمه إلى الآن ... » وقال مسعر بن مهلهل : « قصر اللصوص بناؤه عجيب جداً . وذلك أنه على دكة من حجر ارتفاعها عن وجه

الأرض نحو عشرين ذراعاً فيه إيوانات وجواسق وخزائن تتحير فى بنائه وحسن نقوشه الأبصار . وكان هذا القصر معقل إبروز ومسكنه ومتنزهه لكثرة صيده وعذوبة مائه ، وحسن مروجه وصحاريه »

تركنا كنكاور والساعة ست ، فما فارقنا ضوء النهار حتى نشر على الأرجاء بدر التمام أشعته ، فسرنا فى جبال وسهول حتى أشرف على الجادة جبل بيستون الشاهق وقد ذكرته من قبل وذكرت قصة فرهاد وشيرين التى لا يزال صداها طائراً فى أرجائه

ولما لاحت ذروة الجبل فى ضوء القمر قلت : بيستون ! ثم أنشدت :

لعل شيرين نصيب خسرو شد سنگ بيهوده مى كند فرهاد

« صار لعل شيرين نصيب خسرو ، وعبثاً يقطع فرهاد الحجر » فأنشد السائق :

به بيستون كه رسيدم گرفت بارانم

أگر غلط نكنم آب چشم فرهادست

« لما بلغتُ بيستون تساقط علىّ المطر ، فان صدق ظنى فتلك دموع فرهاد . » ثم قال السائق أتعرف قصة شيرين وفرهاد ؟ فأحببت أن أسمعها منه ، فقلت ما القصة ؟ قال : « كان فرهاد راعياً لبروز فرأى يوماً شيرين امرأة بروز فهام بها حباً . وكان يظنها إحدى إماء الملك . ومرضت شيرين يوماً فقال الملك لفرهاد إن شئت أن أمنحك شيرين فانحت فى الجبل قناة يسيل فيها اللبن من المرعى إلى القصر ، فشق فى الحجر قناة طولها فراسخ . فلما أبلت شيرين قال الملك لفرهاد بقى أن تبنى لى قصراً عظيماً . فنحت الأحجار وبنى القصر . فلما خشى الملك أن يستنجزه فرهاد وعده قال لمشيريه كيف الخلاص من فرهاد ؟ فتطوعت امرأة عجوز بالحيلة وذهبت إلى فرهاد نائحة لاطمة . قال : ماخطبك ؟ قالت : ماتت شيرين . فغشى عليه ومات لساعته ، وخلصت شيرين لبروز . »

والقصة ذائعة فى الأدب الفارسى ، وقد نظمت مراراً وبلغ بها الشعراء آلاف الأبيات . فلما فرغ السائق من قصصه قلت : أنستطيع أن نرى أثر فرهاد فى هذا الجبل ؟ قال إنه عال ، ولا يرى بالليل

بلغنا كرمانشاهان والساعة ثمان بعد أن قطعنا إليها من همذان ١٩٠ كيلاً . وأوينا إلى فندق اسمه « مهمانخانهٔ بزرك » أى الفندق الكبير . وهو فندق نظيف حسن النظام . واستأذن منا سائق السيارة أن يتأخر قليلاً غداً ريثما يصلح سيارته . ثم انصرف

وأصبحنا ننتظر السائق فطال بنا الانتظار فذهبنا نمشى فى المدينة ، ثم ذهبنا إلى دار البريد فأرقنا إلى وزير المعارف لنشكر له ما لقينا من حفاوة قبل أن نجتاز حدود إيران . ورجعنا إلى الفندق فلم نجد السائق ، وذهبنا نفتش عنه فى الحانات حتى عثرنا علياً مُكباً هو وبعض الصناع على إصلاح السيارة . ولم نستطع مغادرة كرمانشاهان إلا وقت الظهر . فأيقنا أن سفرنا غداً إلى دمشق عسير أو محال . وجدّ بنا السير زهاء ساعتين فبلغنا شاه آباد ، وقد ذكرتها من قبل ، فنزلنا فى فندق صغير فاسترحنا وطعمنا ، ونشط أصحاب الفندق من الأرمن فى خدمتنا فاستأنفنا السير بعد ساعة ومررنا بكرند وكنه باطاق ، وسرپل ذهاب حتى بلغنا قصر شيرين والساعة خمس فتوقفنا هناك عشر دقائق . ثم تركناها نؤم حدود العراق

دخلنا حدود العراق والساعة ست ، وقد غربت الشمس فلقينا الموظفون مرحبين ويسروا لنا السفر العاجل فسرنا إلى خانقين فمرجنا على دار السيد عبد القادر صالح معاون الجمارك لنسلم ونشكر له ضيافته حين مررنا بخانقين المرة الأولى

توجهنا إلى بغداد والساعة سبع من المساء ، وأمامنا صحراء مشتبهة الأعلام ، طامسة المناهج ، ولكن مهارة السائق ، وعلامات الطريق يسرت لنا بلوغ بعقوبة والساعة تسع ، حين بلغ منا التعب مبلغه . وقفنا على منتدى فى الطريق ، ونزلنا فاذا صورة أم كلثوم فى صدر المكان . ولما عرف صاحب المنتدى أننا مصريون أسرع فأسمعنا غناءها . فشعرنا ونحن فى العراق أن مصر قريب

ثم سرنا من بعقوبة فأدركنا شاب ينادى أن الطريق غير بينة فاحملونى لأدلكم . قلنا لا حاجة إليك . وأدركنا فارسان من العسس فقالا أمامكم صحراء لا تهتدون فيها إلى طريقكم . فخير لكم أن تبيتوا هنا ، وهنا فندق نظيف . وإن شئتم فكلموا رئيس الشرطة ليرسل معكم دليلاً . وهذا الشاب إن حملتموه معكم لا يستطيع أن يهديكم الطريق . فأقسم الشاب أنه بها جد خبير ، وأنه هدى من قبل كثيراً من المسافرين . فارتكبنا أهون الشرين وحملنا هذا الدليل معنا . ولم يكن له مكان فى السيارة فركب على الرفرف